http://wahetelkotob.com/

465

النص الكامل

مغامرات شيرلوك هولمز

٢

تأليف:
آرثر كونان دويل

قَضيّة هُويّة

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

الرسومات الأصلية

2

The Adventures of Sherlock Holmes

The Case of Identity

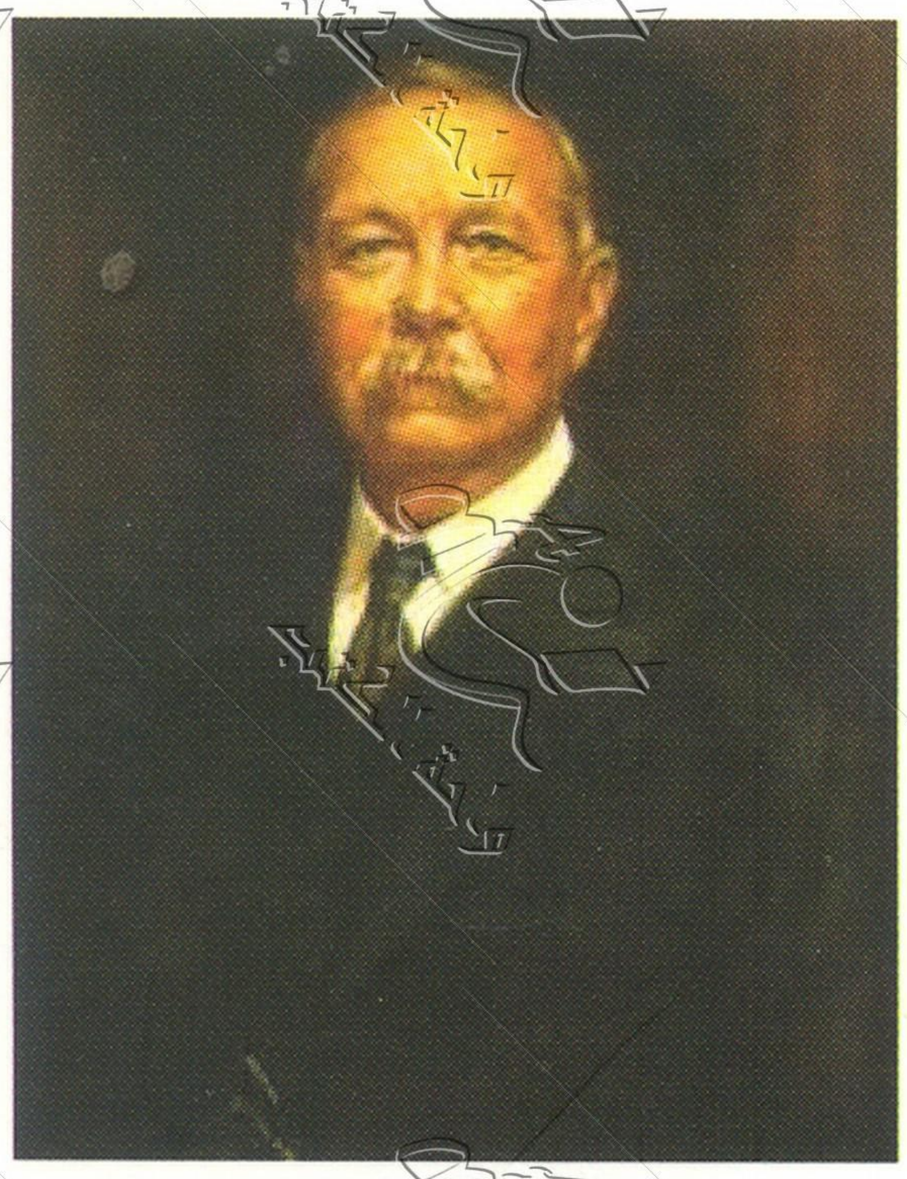

مغامرات شيرلوك هولمز

تأليف: آرثر كونان دويل

Sat.
26/3/2016

US $ 1.35

سعر البيع ٥ ريالات

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

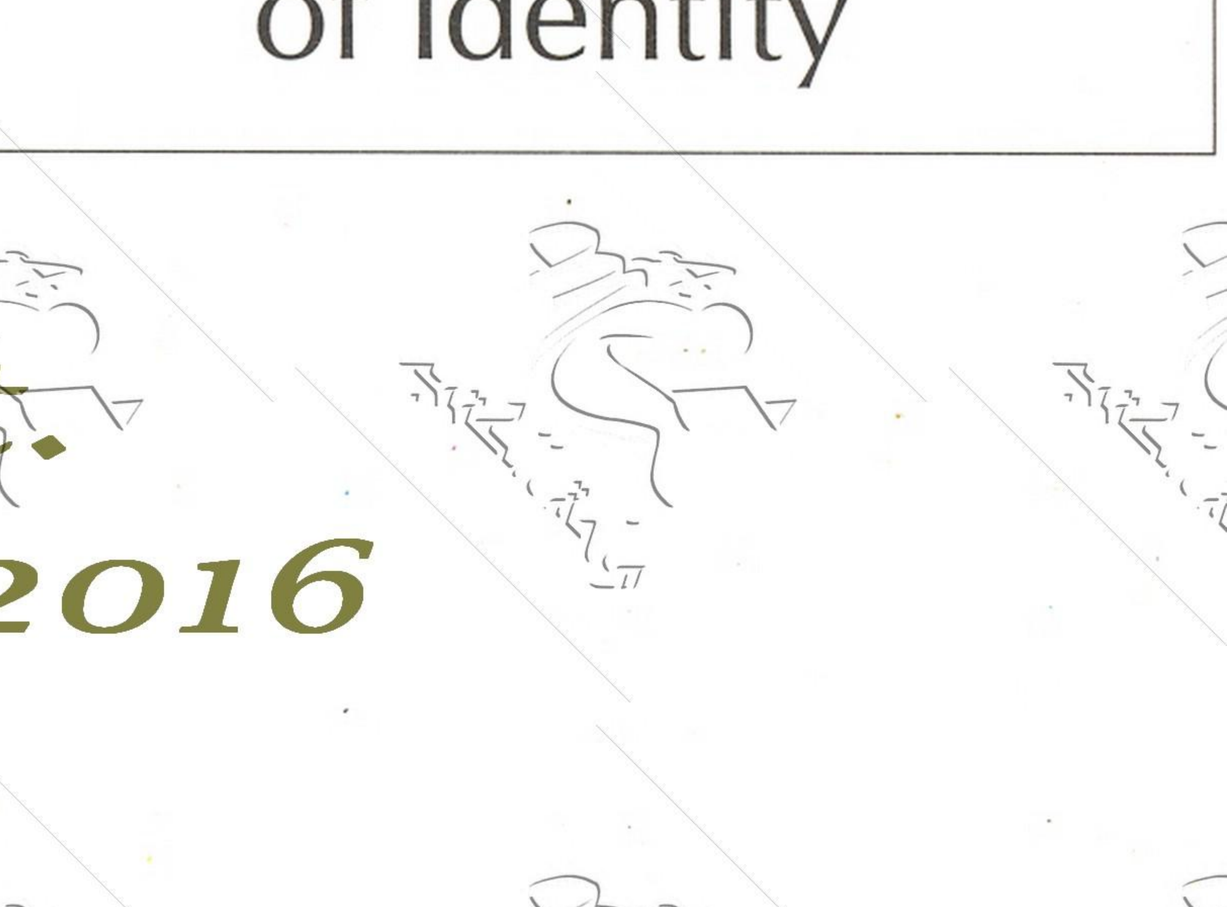

9782195733055

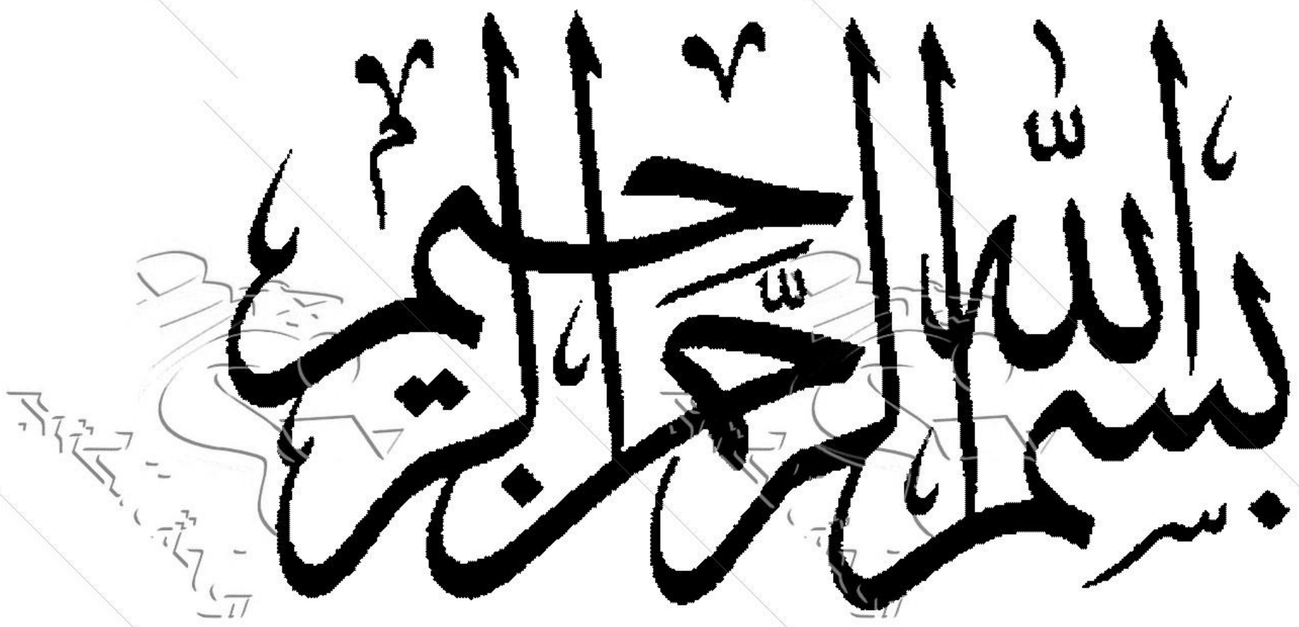

مغامرات

شيرلوك هولمز

(٢)

قَضيّة هُوِيّة

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد آب (أغسطس) ١٨٩١

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال
للترجمة والنشر

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُويِر (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *

شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من برِبادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،

وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة رواية شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نشرت اخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *

رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

قَضيّة هُويّة

قال شيرلوك هولمز عندما جلسنا معاً بجوار المدفأة في منزله بشارع بيكر: إن الحياة -يا صديقي العزيز- أغرب من أي خيال يمكن للعقل البشري الوصول إليه، حتى لو أننا استطعنا الطيران خارج تلك النافذة لنحوم فوق هذه المدينة العظيمة ثم أزلنا أسقف المنازل واختلسنا النظر إلى تلك الأمور الغريبة التي تحدث تحتها والمصادفات المثيرة وسلاسل الأحداث الرائعة وهي تتطور لتؤدي إلى أكثر النتائج غرابة... لو صنعنا ذلك لرأينا الروايات الخيالية مملّة وذات نهايات ساذجة مألوفة.

أجبته قائلاً: لكنني غير مقتنع بهذا الكلام، فالقضايا الواقعية التي تظهر في الصحف تكون دائماً واضحة وبسيطة بما فيه الكفاية، كما أننا نجد الواقعية في أقصى صورها في تقارير الشرطة.

فعلّق هولمز قائلاً: لكي تُحدث تأثيراً فى نفس القارئ عليك أن تمارس قَدْراً من الحذف والاختيار، وهذا أمر تعجز عنه تقارير الشرطة التي تكاد تقتصر على ملاحظات القاضي البديهية وتهمل التفصيلات

التي تحتوي على الجوهر الرئيسي للأمر كله. أكرر لك تأكيدي بأنك لن تجد ما هو أغرب من الأمور الواقعية التي تَفيض بها حياة الناس.

ابتسمت وهززت رأسي قائلاً: يمكنني أن أفهم تماماً سبب تفكيرك بهذا الشكل، فقد احتككت بكل ما هو غريب وشاذ من خلال وضعك كناصح ومساعد لكل شخص يقع في حيرة في ثلاث قارات، ولكن...

ثم التقطت صحيفة الصباح وأكملت قائلاً: هيا نُجرِ اختباراً عَمَلياً. ها هو أول عنوان وقعت عليه عيني: «قسوة زوج تجاه زوجته»، مكتوب تحته مقال من نصف عمود، ولكنني أعرف -دون أن أقرأه- أنه مألوف لا غرابة فيه، فسوف تجد فيه المرأة الأخرى والشرب والدفع والضرب والكدمات والأخت أو صاحبة المنزل المتعاطفة... حتى أقل الكتاب براعة لم يكن ليخترع قصة أكثر إثارة للملل.

فقال هولمز: إن المثال الذي ذكرته غير مناسب حقاً كبرهان على ما تقول.

ثم أخذ الصحيفة فمرّ بعينيه على الصفحة وقال: هذه قضية طلاق الزوجين دَنْداس على سبيل المثال، وهي تساعدني في توضيح مقصدي. الزوج لا يشرب

الكحول مطلقاً، ولا توجد امرأة أخرى، وقد نشأت قضية الطلاق بسبب سلوك غريب؛ ذلك أن الزوج قد اعتاد في نهاية كل وجبة على خلع أسنانه الاصطناعية ورمي زوجته بها! وهذا ليس بالتصرف الذي يمكن أن يخطر ببال روائي أو قاصّ عادي. اعترف إذن -يا دكتور- بأنني تغلبت عليك في المثال الذي قمتُ باختياره.

ثم مدّ هولمز يده إليّ بالصحيفة فسألته وأنا أنظر إلى الجوهرة المميّزة التي برقت على إصبعه: ماذا عن هذا الخاتم؟

- إنه هدية من العائلة المالكة في هولندا، وإن كانت القضية التي ساعدتهم فيها على درجة كبيرة من الدقة والسرية بحيث لن أستطيع البوح بها لك، رغم أنك تفضلت بتسجيل أحداث بعض قضاياي الصغيرة.

فسألته باهتمام: وهل تعمل بأيّ قضية في الوقت الحاضر؟

- أعمل الآن بعشر قضايا، ولكن أيّاً منها لا تحمل أي صفات مثيرة للاهتمام. إنها قضايا مهمة ولكنها ليست مثيرة، فقد اكتشفت -في الحقيقة-

أن القضايا الغير المهمّة عادة ما تحتوي على مجال للملاحظة والتحليل السريع وربط السبب بالنتيجة، وهو الأمر الذي يعطي لأي تحقيق جاذبيّتَه، وبالمقابل وجدت أن القضايا العظيمة تميل إلى البساطة، حيث إن القضية كلما زادت أهميتها كلما أصبح الدافع أكثر وضوحاً... يكاد هذا أن يكون قاعدة عامة. وإذا استثنينا قضية فيها بعض التعقيد (وهي قضية وصلتني

رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

من مرسيليا) فليس في هذه القضايا التي أبحثها ما يثير الاهتمام.

سكت قليلاً ثم قال: ولكن ربما حصلت على شيء مثير خلال الدقائق التالية على أية حال، فها قد جاء أحد عملائي إن لم أكن مخطئاً.

ونهض هولمز عن مقعده فوقف بين طرفي الستائر المفتوحة ينظر إلى شوارع لندن الغائمة الباهتة، وحين نظرت من فوق كتفيه رأيت امرأة تقف على الرصيف المقابل تلفّ شالاً من الفرو حول عنقها وتضع ريشة حمراء كبيرة في قبعتها ذات الحافة العريضة التي تميل على أذنها كأنها دوقة ديفونشاير! ومن تحت هذه القبعة العجيبة اختلست السيدة النظر إلى نافذتنا بطريقة متوترة مترددة، بينما أخذت تقدّم رِجلاً وتؤخّر أخرى وقد أخذت أصابعها تلعب بأزرار قفازها بحركة عصبية، وفجأة اندفعت بعنف كالسبّاح الذي يلقي بنفسه في الماء بعد تردّد، وأسرعت تعبر الشارع لنسمع بعد ذلك رنين الجرس الحاد.

قال هولمز: لقد رأيت هذه الأعراض من قبل، فالتردد عند الرصيف يعني دائماً قضية تتطلب جرأة؛ فهي ترغب في طلب النصيحة لكنها ليست متأكدة من صواب عرض قضيتها الحساسة على الآخرين.

وحتى هنا يمكننا تحليل الحالة، فعندما يؤذي رجلٌ ما امرأةً بشدة لا ينشأ عندها تردد بل تكون الأعراض في العادة دقّات متواصلة للجرس، أما هنا فيمكننا أن نفهم من الأمر أن المسألة تتعلق بالحب وأن الآنسة ليست غاضبة بقدر ما هي حائرة أو حزينة... ها هي قد جاءت -على أية حال- لتبدّد شكوكنا بنفسها.

قُرع جرس الباب عندما كان يتحدث ودخل الخادم الصغير ليعلن حضور الآنسة ماري سَذَرْلاند، ثم ظهرت السيدة نفسها خلف جسمه الأسمر الصغير بشكل ضخم كمركب تجاري منشور الشراع خلف زورق صغير!

رحّب شيرلوك هولمز بالسيدة بلطفه المعهود، وبعد أن أغلق الباب ودعاها إلى الجلوس على مقعد ذي ذراعين نظر إليها متفحّصاً بطريقته الدقيقة المميزة المجرّدة، ثم قال: ألا تجدين أن إصابتك بقِصَر النظر تجعل من الصعب القيام بالكثير من الطباعة على الآلة الكاتبة؟

فأجابته قائلة: كنت أجدها كذلك في البداية، أما الآن فأنا أعرف أماكن الحروف دون أن أنظر...

ثم أدركَت فجأة ما يقول فقطعت جملتها وقد جفلت بعنف ونظرت وعلى وجهها العريض الودود

علامات الدهشة والخوف، ثم صاحت قائلة: لا بد أنك سمعت عني يا سيد هولمز! وإلا كيف لك أن تعرف كل هذا؟

فقال هولمز ضاحكاً: لا تكترثي، فمن صميم عملي أن أعرف الأشياء. ربما كنت قد درّبت نفسي

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

على رؤية ما يغفل الآخرون عنه، ولو لم أكن كذلك لما جئتِ لاستشارتي.

- لقد جئت إليك يا سيدي لأنني سمعت عنك من السيدة إثيريج التي عثرتَ على زوجها بسهولة بعد أن سلّمَ الشرطة بموته. آه يا سيد هولمز، أرجو أن تقوم بالأمر نفسه معي، ورغم أنني لست ثرية إلا أن لي دخلاً قدره مئة جنيه في العام بالإضافة إلى القليل الذي أكسبه من عملي على الآلة الكاتبة، وأنا على استعداد للتخلي عنه كله في سبيل معرفة مصير السيد هوسْمِر إينْجل.

فسألها هولمز وقد ضمّ أطراف أصابع يديه معاً وثبّتَ عينيه على السقف: لماذا أتيت بمثل هذه السرعة لاستشارتي؟

ظهرت نظرة الخوف ثانية على وجه الآنسة ماري سذرلاند وقالت: نعم، لقد خرجت مندفعة من المنزل لأننى غضبت من السهولة التى نظر بها السيد ويندِيبانك، والدي، إلى هذا الأمر؛ فقد رفض الذهاب إلى الشرطة كما رفض المجيء إليك، وأخيراً رفض القيام بأي شيء واستمرّ يقول إن أي أذى لم يحدث، فأثار الأمر جنوني وحضرت إليك على الفور.

- والدك هو زوج والدتك بالتأكيد لأن الاسم مختلف.

- نعم، إنه زوج أمي، وأنا أناديه «أبي» بالرغم من سخافة الأمر، حيث إنه لا يكبرني إلا بخمسة أعوام وشهرين.

- هل أمك على قيد الحياة؟

- نعم، أمي على قيد الحياة وفي صحة جيدة، وأنا لم أكن سعيدة جداً يا سيد هولمز عندما تزوجَت ثانية بعد وفاة أبي بوقت قصير برجل أصغر منها بنحو خمسة عشر عاماً. لقد كان أبي يعمل بتوصيل أنابيب المياه والغاز في طريق توتنهام كورت، وقد ترك مشروعاً تجارياً ضخماً قامت أمي بإدارته مع كبير العمال السيد هاردي، ولكن عندما جاء السيد ويندي بانك جعلها تبيع المحل؛ فقد اعتبره أقلّ من مستواه نظراً لأنه يعمل في التسويق. وقد حصلا على مبلغ قدره أربعة آلاف وسبعمئة جنيه مقابل المشروع وشهرة المحل، وهو سعر أقل بكثير مما كان أبي سيحصل عليه لو كان حياً.

توقعت أن أرى نفاد صبر هولمز بسبب هذه الرواية المملة المطوّلة التي لا تمتّ إلى الموضوع

بصلة، إلا أنني وجدته يستمع بتركيز شديد، وسألها قائلاً: وهل دخلك الخاص الصغير يأتي من هذا المشروع؟

- لا، لا يا سيدي، إنه منفصل تماماً. لقد ترك لي عمي نيد في أوكلاند استثماراً في بورصة نيوزيلندا بعائد قدره خمسة بالمئة. المبلغ نفسه يبلغ ألفين وخمسمئة جنيه، ولكنني لا أستطيع التصرف إلا بالعوائد.

فقال هولمز: إنك تثيرين اهتمامي بشدة، وبما أنك تحصلين على مئة جنيه في العام (وهو مبلغ كبير) بالإضافة إلى حصّتك في الصفقة، فلا بد أنك تسافرين قليلاً وتدللين نفسك بشتى الطرق، فأنا أظن أن سيدة بمفردها يمكن أن تعيش بشكل جيد جداً بدخل يبلغ نحو ستين جنيها.

- بل أستطيع العيش بأقل من ذلك كثيراً يا سيد هولمز، ولكنك تدرك أنني لا أحب أن أكون عبئاً عليهما وأنا أعيش في منزلهما، ولذلك فهما يستفيدان من دخلي حالياً، وهذا وضع مؤقت بالطبع. إن السيد ويندي بانك يسحب الفائدة كل ثلاثة أشهر ويدفعها لأمي، وأنا أجد أنني أستطيع تدبير أموري بشكل جيد بما أكسبه من عملي على الآلة الكاتبة فهو يدرّ عليّ

بنسين في الصفحة، وأنا أستطيع في العادة طباعة نحو عشرين صفحة في اليوم.

قال هولمز: لقد أوضحتِ موقفك تماماً. هذا هو صديقي الدكتور واطسون، ويمكنك التحدث أمامه بنفس الحرية التي تتحدثين بها أمامي. أرجو أن تتكرمي وتخبرينا الآن بكل ما يخص علاقتك بالسيد هوسمر إينجل.

تسلّلَت حمرةُ الخجل إلى وجه الآنسة سذرلاند وأمسكت بأطراف سترتها وأخذت تلعب بها بتوتر ثم قالت: لقد قابلته في حفلة عمال تركيب الغاز، فقد اعتادوا على إرسال تذاكر لأبي عندما كان على قيد الحياة، وحتى بعد وفاته تذكرونا وأرسلوا التذاكر لأمي، ولكن السيد ويندیبانك لم يرغب في ذهابنا، بل إنه لا يرغب في ذهابنا إلى أي مكان حتى إنه ليغضب بجنون لو فكرت حتى في المشاركة في حفلة ترفيه تقيمها مدرسة الأحد الدينية! ولكنني كنت مصممة على الذهاب هذه المرة وكنت سأذهب، فبأي حق يمنعني؟ وقد قال إن هؤلاء القوم لا يليقون بنا (بالرغم من أن كل أصدقاء أبي كانوا هناك)، وقال إنني لا أملك من الثياب ما يناسب الحفل (رغم أنني أملك ثوباً بنفسجي اللون من القماش المخملي

لم ألبسه تقريباً). وأخيراً لم يجد مبرّرات أخرى لمنعي من الذهاب! وبعدها ذهب إلى فرنسا في عمل للشركة، فذهبت أنا وأمي إلى الحفلة مع السيد هاردي الذي كان كبير عمالنا في السابق، وهناك قابلت السيد هوسمر إينجل.

فقال هولمز: لا بد أن السيد ويندي‌بانك قد تضايق بشدة عندما عاد من فرنسا وعلم بذهابك إلى الحفل.

- حسناً، لقد تعامل مع الأمر بشكل جيد، فقد ضحك -على ما أذكر- وهزّ كتفيه وهو يقول: لا يستطيع أي شخص أن يمنع المرأة من تحقيق ما تريد، فهي سوف تجد أي وسيلة لتنفيذه.

- حسناً، وهكذا فقد تعرفت في حفلة عمال تركيب الغاز على سيد محترم اسمه هوسمر إينجل.

- نعم يا سيدي، قابلته تلك الليلة واتصل هو في اليوم التالي ليطمئن على وصولنا بسلام إلى المنزل. وبعد ذلك قابلناه، أو يمكنني القول إنني «قابلته» وخرجت معه في نزهة مرتين، ولكن أبي عاد من سفره فلم يحضر السيد هوسمر إينجل إلى المنزل بعد ذلك.

- لماذا؟

- لأن أبي لم يكن يحب مثل هذه الأشياء، ولو كان الأمر بيده لما سمح لأحد بزيارتنا على الإطلاق، وقد اعتاد أن يقول لأمي إن المرأة يجب أن تسعد وسط أفراد عائلتها. ولكن -وكما أقول لأمي باستمرار- يجب أن تحظى المرأة بعائلة خاصة بها في البداية، وأنا لم أحظَ بذلك بعد.

- ولكن ماذا عن السيد هوسمر إينجل؟ ألم يحاول رؤيتك؟

- كان أبي سيسافر إلى باريس ثانية بعد أسبوع، وقد كتب هوسمر وقال إن من الأفضل والأسلم أن لا يرى أحدُنا الآخرَ حتى يسافر أبي ولنكتفِ بالمراسلة حتى ذلك الوقت. وقد اعتاد أن يكتب رسالة كل يوم، وكنت آخذ الرسائل في الصباح حتى لا يعلم أبي.

- هل كنت مخطوبة إلى السيد هوسمر إينجل في ذلك الوقت؟

- نعم يا سيد هولمز، لقد ارتبطنا بعد أول نزهة لنا؛ فهوسمر، أقصد السيد إينجل، كان صرافاً في مكتب بشارع ليدنهول و...

- أي مكتب؟

- هذا هو أسوأ ما في الموضوع يا سيدي، فأنا

لا أعرف؟

- أين يقيم إذن؟

- إنه يقيم في مسكن ملحق بمقرّ عمله.

- ولكنك لا تعرفين عنوانه.

- لا أعرف إلا أنه في شارع ليدنهول.

- إلى أين كنت ترسلين خطاباتك إذن؟

- كنت أرسلها إلى مكتب بريد شارع ليدنهول لتُحفَظ حتى يتم طلبها، فقد قال إنها لو أرسلت إلى المكتب فسوف يسخر منه زملاؤه الآخرون بسبب تلقيه خطابات من سيدة، فعرضت عليه أن أكتبها على الآلة الكاتبة كما يفعل هو بخطاباته، فلم يوافق على ذلك وقال إنني عندما أكتبها بخط يدي يحسّ عندها أنني المرسلة أما عندما أكتبها على الآلة الكاتبة فذلك يجعله يشعر بأن الآلة قد وقفت بيننا! وهذا الأمر يُظهر لك كم كان مغرماً بي يا سيد هولمز، بالإضافة إلى الأشياء البسيطة التي كان يفكر فيها.

فقال هولمز: إن لهذا دلالة كبيرة، فمن الحقائق التي آمنت بها منذ وقت طويل أن الأشياء الصغيرة هي الأكثر أهمية. فهل بإمكانك تذكّر أي أشياء أخرى

صغيرة عن السيد هوسمر إينجل؟

- لقد كان رجلاً خجولاً جداً يا سيد هولمز، فقد كان يفضّل أن يمشي معي في المساء بدلاً من المشي في ضوء النهار لأنه يكره لفت النظر كما قال لي، كما كان ميّالاً إلى العزلة ورقيقاً جداً، حتى صوته كان رقيقاً، وقد قال لي إنه أصيب وهو صغير بمرض الخُناق وبالتهاب في الغدة الدّرَقية مما جعل حنجرته ضعيفة وطريقة حديثه مترددة هامسة. وهو حسن الملبس، فملابسه أنيقة بسيطة، ولكن عينيه ضعيفتان كعينيّ ويضع نظارات ملوّنة لتحميه من الضوء الباهر.

- حسناً، وما الذي حدث عندما عاد السيد ويندیبانك إلى فرنسا؟

- لقد جاء السيد هوسمر إينجل إلى المنزل ثانية وعرض أن يتزوجني قبل عودة أبي، وقد كان يتحدث بجد شديد وجعلني أقسم على أن أكون مخلصة له مهما حدث. وقد قالت أمي إن من حقه أن يحملني على القسم وإن هذا دليل على مشاعره الطيبة، فأمي كانت متحيّزة له منذ البداية حتى إنها كانت معجبة به أكثر مما كنت أنا. وبعد ذلك بدآ يتكلمان عن إتمام الزواج في غضون أسبوع، وحين سألتهما عن أبي طلبا مني أن لا ألقي إليه بالاً وقالا إننا سوف نخبره

بعد الزواج، وقالت أمي إنها سوف تقنعه بالأمر. لم يعجبني هذا الكلام يا سيد هولمز، ورغم أن من السخف أن أستأذنه في زواجي وهو لا يكبرني إلا بسنوات قليلة فإنني لم أرغب في فعل أي شيء خلسة، ولذلك فقد كتبت إليه خطاباً وأرسلته إلى مكتب الشركة في بوردو في فرنسا، ولكن الخطاب أُعيد إليّ في نفس يوم الزفاف.

- لم يلحق به إذن؟

- نعم يا سيدي، لأنه كان قد بدأ رحلته إلى إنكلترا قبل وصول الخطاب مباشرة.

- يا لسوء الحظ. كان الزفاف سيتم إذن يوم الجمعة، فهل كان سيقام في الكنيسة؟

- نعم يا سيدي، ولكن بهدوء شديد. كان سيقام في كنيسة سينت سافيورز بالقرب من كينغز كروس، وكنا سنتناول الإفطار بعد ذلك في فندق بانكرس، وقد جاء هوسمر لاصطحابنا في عربة صغيرة تتسع لراكبين، ولكن لأننا كنا اثنتين فقد تركها لنا وركب هو عربة ذات عجلات أربع تصادف أن كانت العربة الوحيدة الأخرى في الشارع. وقد وصلنا إلى الكنيسة أولاً، وعندما وصلت العربة الكبيرة انتظرنا أن يخرج

منها ولكنه لم يخرج قط، وعندما نزل السائق من فوق مقعده ونظر في العربة لم يجد أحداً، وقال إنه لا يستطيع تصور ما حدث لأنه رآه يدخل العربة بعينيه. حدث ذلك يوم الجمعة الماضي يا سيد هولمز، ولم أرَ أو أسمع شيئاً قد يلقي الضوء على ما حدث له منذ ذلك الوقت.

قال هولمز: يبدو لي أنك قد عوملت بطريقة مشينة.

- لا، لا يا سيدي، لقد كان من اللطف والطيبة

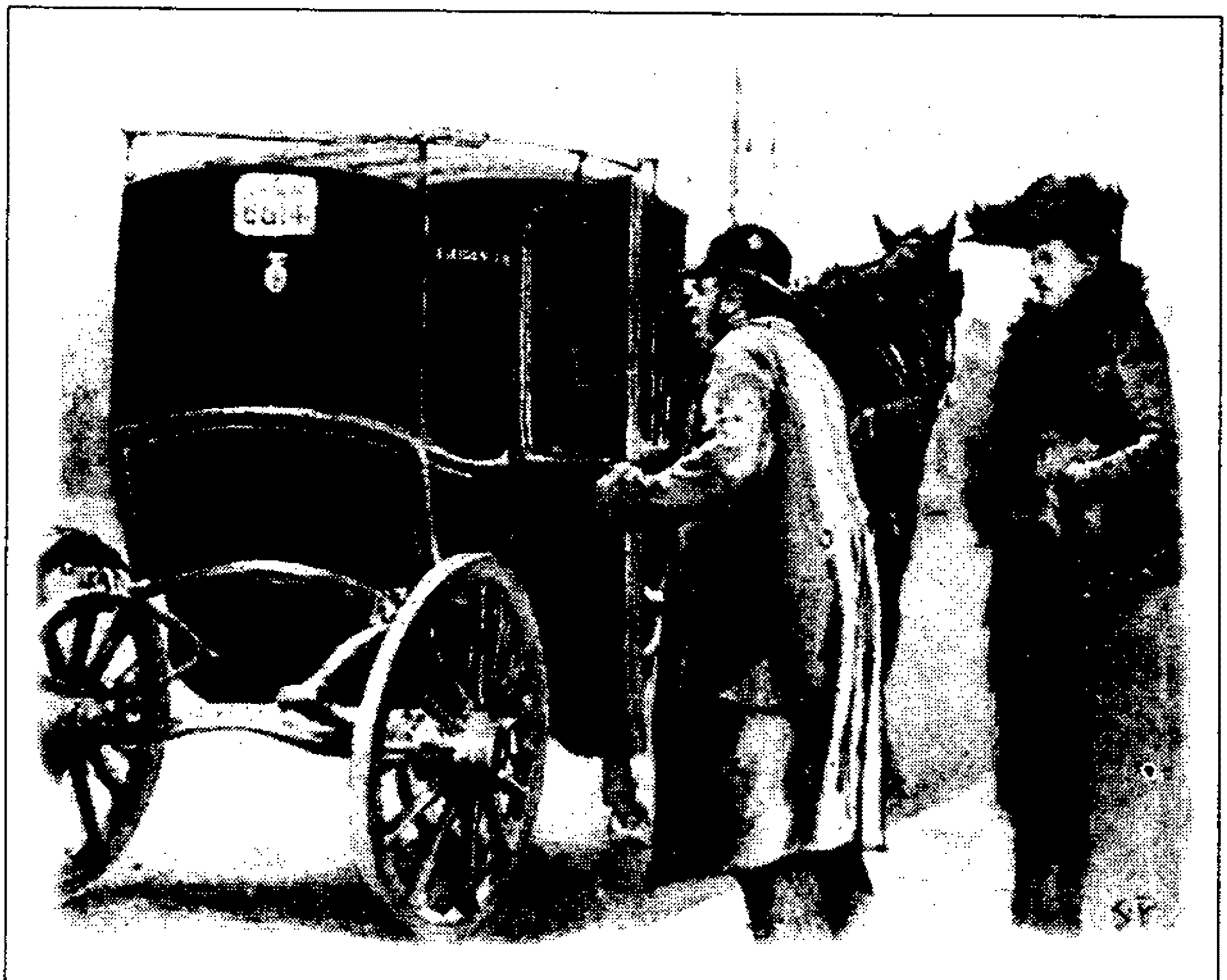

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

بحيث لا يمكن أن يتركني بتلك الطريقة، وقد ظل طَوال الصباح يقول لي إنني يجب أن أكون مخلصة له مهما حدث وإن عليّ أن أتذكر دائماً أن بيننا عهداً يربطنا حتى لو وقع أمر غير متوقَّع وفرّق بيننا، وأكّد أنه سيعود إن عاجلاً أو آجلاً ويطلب مني أن أفي بعهدي.

- ولماذا يتوقع أن يفرّق بينكما أيُّ أمر؟ هل لاحظتِ من قبل أي شيء غريب يبرّر مثل هذا الاحتمال؟

قالت بتأمل: لقد بدا من الغريب قول هذا الكلام في صباح عقد القِران، ولكن ما حدث منذ ذلك الوقت أعطى تفسيراً للأمر.

قال هولمز: بالتأكيد، فأنت تظنين -إذن- أن كارثة غير متوقَّعة قد حلّت به؟

- نعم يا سيدي، فأنا أظن أنه قد تنبأ بخطر ما، وإلا لما تحدث بتلك الطريقة. وأحسب أن ما توقعه قد حدث.

- ولكن أليست لديك أي فكرة عما يمكن أن يكون هذا الشيء؟

- لا فكرة على الإطلاق.

- سؤال واحد آخر، كيف تقبّلَت أمك الأمر؟

- لقد كانت غاضبة وقالت إنّ عليّ أن لا أتحدث في الأمر ثانية.

- وماذا عن أبيك، أقصد السيد ويندي‌بانك، هل أخبرته بالأمر؟

- نعم، وقد بدا أنه يتفق معي في الرأي في أن شيئاً قد حدث وأن السيد هوسمر سوف يتصل بي ثانية، فما الذي يمكن لأي شخص أن يستفيده من هجري على أبواب الكنيسة؟ فلو أنه اقترض مني مالاً أو أنه تزوجني وجعلني أكتب له المال لكان من الممكن أن يكون هناك سبب ما، ولكن هوسمر كان مستقلاً مادياً ولم ينظر إلى مالي إطلاقاً، فما الذي حدث إذن؟ ولماذا لم يكتب لي؟ آه، إن التفكير بهذا الأمر يكاد يصيبني بالجنون، ولا يكاد يغمض لي جفن طول الليل.

ثم أخرجت منديلاً وبدأت في البكاء بشدة وهي تدفن وجهها فيه، فقال هولمز وهو يقف: سألقي نظرة على هذه القضية من أجلك، ولا شك عندي في أننا سوف نتوصل إلى نتيجة محددة. دعي الأمر كله لي الآن ولا ترهقي نفسك بالتفكير فيه بعد الآن، وأهم

شيء هو أن تحاولي التخلص من ذكرى السيد هوسمر ليختفي من ذاكرتك كما اختفى من حياتك.

– إذن فأنت تعتقد أنني لن أراه ثانية؟

– أخشى ذلك.

– وما الذي حلّ به؟

– اتركي لي العثور على إجابة لهذا السؤال، وأريد وصفاً دقيقاً له وأية خطابات تستطيعين الاستغناء عنها.

– لقد أعلنت عن فقده في إحدى الصحف يوم الأحد الماضي، وها هو نص الإعلان، بالإضافة إلى أربعة خطابات.

– شكراً. وما هو عنوانك؟

– المنزل رقم ٣١ شارع ليون بليس، كامبرويل.

– لقد فهمت أنك لا تعرفين عنوان السيد هوسمر، فما هو مقرّ عمل أبيك؟

– إنه يعمل مندوب مبيعات لشركة ويست هاوس ومارباركك في شارع فِنْشيرْش.

– شكراً. لقد عرضت قضيتك بوضوح تام،

فلتتركي الأوراق هنا وتذكّري النصيحة التي أسديتها لك اليوم؛ انسي كل ما حدث ولا تَدَعي هذا الحادث يؤثر في حياتك.

- أنت لطيف جداً يا سيد هولمز، ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك؛ فسوف أبقى مخلصة لهوسمر وسوف يجدني منتظرة حين يعود.

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

ثم وضعت حزمتها الصغيرة من الأوراق على الطاولة وذهبت في طريقها مع وعد منها بالعودة إذا استدعيناها.

* * *

رغم القبعة السخيفة والوجه الأبله فإن شيئاً من النبل بدا في إخلاص زائرتنا الساذج مما أجبرنا على احترامها. وجلس شيرلوك هولمز صامتاً لعدة دقائق وقد مدّ ساقَيه أمامه وهو يجمع أطراف أصابع يديه معاً ويحملق إلى الأعلى باتجاه السقف، ثم أخرج من الخزانة غليونه المصنوع من الصلصال القديم الذي كان كالمستشار بالنسبة له، وعندما أشعله مال إلى الخلف في كرسيه وقد بدت على وجهه نظرة كسل لا حدّ له، فيما انطلقت سُحب الدخان الكثيف الأزرق تتصاعد من غليونه بشكل لولبي.

ثم قال معلقاً: إن تلك الفتاة موضوع مثير للاهتمام. لقد وجدتها أكثر إثارة للاهتمام من قضيتها البسيطة.. وهي قضية مبتذلة بالمناسبة، وسوف تجد قضايا مطابقة لها؛ فلو أنك راجعت الدليل الخاص بقضاياي لوجدت قضية مشابهة حدثت في آندوفر عام ١٨٧٧، لكن رغم أن الفكرة قديمة فإن فيها نقطة أو نقطتين جديدتين بالنسبة لي... ولكن الفتاة نفسها مثيرة للتفكير.

قلت: يبدو أنك رأيت فيها الكثير مما لم أرَه أنا.

- ليس الأمر أنك لم ترَه يا واطسون، بل أنت لم تلاحظه! فأنت لم تعرف إلى أين تنظر، وهكذا فقد فاتك كل ما هو مهم. ليس بإمكاني أن أجعلك تدرك أهمية الأكمام، أو الدلالة التي قد أستنتجها من ظفر الإبهام، أو أهمية المسألة التي تتوقف على رباط الحذاء... والآن، ما الذي استنتجتَه من مظهر المرأة؟ صِفه.

- حسناً، إنها ترتدي قبعة زرقاء من القش لها حافة عريضة وفيها ريشة حمراء، وكانت سترتها سوداء مطرَّزة بالخرز الأسمر ومحلاّة على أطرافها بكَهْرمان أسود، أما ثوبها فكان بنّياً مع حلية من القطيفة البنفسجية عند العنق والأكمام، وكان قفازاها رماديين وكان الأيمن منهما بالياً عند إصبع السبابة، أما حذاؤها فلم ألحظه، ولكنها كانت ترتدي قرطاً ذهبياً صغيراً متدلياً، وقد أعطت انطباعاً عاماً بأنها موسرة ولكن بطريقة سوقية.

صفّق شيرلوك هولمز بيديه بصوت منخفض وضحك، ثم قال: أقسم أنك تقدمت بشكل رائع يا واطسون، فقد قدّمت وصفاً جيداً جداً بالفعل. وبالرغم من أنك غفلت عن كل ما هو مهم إلا أنك

وُفِّقت في الأسلوب الذي اتّبعته، كما أنك تلتقط الألوان بسرعة. ولكن لا تثق أبداً في الانطباعات العامة يا صديقي، بل ركّز على التفصيلات؛ فأول ما أنظر إليه في المرأة هو كمّها، أما في الرجل فقد يكون من الأفضل أن أبدأ بركبة البنطال. وكما لاحظت فهذه المرأة لديها على كمّها قماش من المخمل، وهو مفيد جداً في إظهار الأثر. وقد ظهر بوضوح خط صغير فوق المعصم بقليل، وهو المكان الذي يسند عليه كاتب الآلة الكاتبة يديه على الطاولة، وبالرغم من أن آلة الخياطة اليدوية تترك أثراً مشابهاً إلا أنه يكون على الذراع الأيسر فقط وعلى الجانب الأبعد من الإبهام بدلاً من أن يمتد الخط على طول الجزء الأعرض من الكم كما كان هذا. وبعد ذلك نظرت إلى وجهها فلاحظت علامة النظّارة الأنفية على جانبَي أنفها، فغامرتُ بالملاحظة المتعلقة بقِصَر نظرها والكتابة على الآلة الكاتبة مما أصابها بالدهشة.

- لقد أدهشتني أنا أيضاً.

- ولكن الأمر كان واضحاً بالتأكيد. بعد ذلك أصابتني الدهشة وزاد اهتمامي حين نظرت إلى أسفل ولاحظت أن الحذاء الذي ترتديه كان من فردتين غير متطابقتين! فبالرغم من أن الاختلاف بينهما ليس كبيراً

إلا أن إحدى الفردتين كان على مقدمتها قطعة جلدية مزخرفة قليلاً، أما الأخرى فقد كانت القطعة الجلدية على مقدمتها غيرَ مزخرفة، بالإضافة إلى أن إحدى الفردتين كانت مزرَّرة بزرّين سفليين فقط من أزرارها الخمسة أما الأخرى فكانت مزرَّرة بالزرّ الأول والزر الثالث والزر الخامس! وهكذا فحين ترى أن امرأة شابة خرجت من منزلها بحذاء غير متطابق وغير مزرَّر بالكامل فليس من الصعب أن تستنتج أنها خرجت مسرعة.

أثار صديقي اهتمامي الحاد كما يفعل دائماً بتحليله المنطقي القاطع، فسألته: وماذا أيضاً؟

- ولاحظتُ بصورة عابرة أنها قد كتبت رسالة قبل مغادرة المنزل بعد ارتدائها ملابسها مباشرة، فقد لاحظتَ أنت أن قفازها الأيمن مقطوع عند السبابة ولكن من الواضح أنك لم ترَ أن طرف القفاز والإصبع كانا قد تلطخا بالحبر البنفسجي، فقد كانت تكتب على عَجَل فغمست القلم في الحبر بعمق، ولا بدّ أن البقعة حدثت هذا الصباح وإلا لكانت العلامة على الإصبع قد بهتت.

ثم قطع حديثَه وقال: كل هذا مسلّ رغم بساطته، ولكن يجب أن أعود إلى العمل يا واطسون... اقرأ لي

وصف السيد هوسمر إينجل في الإعلان لو سمحت.

قرّبت قطعة الورق المطبوعة من النور، وكان هذا هو نص الإعلان:

فُقد صباح الرابع عشر من هذا الشهر رجل محترم اسمه السيد هوسمر إينجل يبلغ طوله نحو مئة وسبعين سنتمتراً، وهو قوي البنية شاحب البشرة أسود الشعر أصلع قليلاً من الوسط، شعر لحيته وشاربه كثيف أسود، يرتدي نظارات ملونة ويتحدث بطريقة فيها ضعف خفيف. كان يرتدي في آخر مرة شوهد فيها معطفاً أسود اللون مقدّمته من الحرير وبنطالاً رمادياً من التويد وصدرية سوداء ويحمل سلسلة ذهبية، ومعروف أنه يعمل في مكتب في شارع ليدنهول. أي شخص يحضر...

قال هولمز: سيَفي هذا بالغرض.

ثم أكمل وهو ينظر إلى الخطابات: أما بالنسبة إلى الخطابات فهي عادية جداً وليس فيها ما يشير إلى شخصية السيد إينجل على الإطلاق، ولكن توجد نقطة مميزة سوف تلفت نظرك بلا شك على أية حال.

قلت: إنها مطبوعة على الآلة الكاتبة.

- ليس هذا فقط، بل إن التوقيع مطبوع أيضاً! انظر إلى الطباعة الأنيقة والصغيرة لاسم «هوسمر إينجل» في الأسفل. وكما ترى فيوجد تاريخ ولكن لا يوجد عنوان ما عدا شارع ليدنهول، وهو عنوان غامض إلى حد ما. إن موضوع التوقيع له دلالة كبيرة، بل يمكننا في الحقيقة القول بأنه حاسم.

- علامَ يدل؟

- هل من الممكن أنك لا ترى علاقة التوقيع القوية بالقضية يا صديقي العزيز؟

- لا يمكنني القول بأنني أفهم، إلا إذا كان يقصد إنكار توقيعه لو أقيمت دعوى خرق للوعد.

- لا، ليست هذه هي النقطة المهمة. سوف أكتب خطابين سيتكفلان بإنهاء الموضوع، أحدهما لشركة بالمدينة والآخر لزوج أم الشابة السيد ويندي بانك، أسأله إذا كان من الممكن أن يقابلنا هنا في السادسة من مساء الغد، فمن الجيد أيضاً أن نعمل مع الأقرباء الذكور. والآن يا دكتور، لا يوجد أي شيء لنفعله قبل وصول الرد على هذين الخطابين، ولذلك فلنضع قضيتنا الصغيرة على الرف في الوقت الحالي.

كانت ثقتي كبيرة بقدرات صديقي في التحليل

المنطقي ونشاطه غير العادي، ولهذا فقد شعرت بأن لديه من الأسباب القوية ما يبرر السلوك الواثق الهادئ الذي يتعامل به مع اللغز الكبير الذي طُلب منه حله.

تركته بعد ذلك وهو ما يزال ينفخ في غليونه الفخاري الأسود وأنا على يقين تام من أنني حين أعود في مساء اليوم التالي سأجده قد أمسك بكل الأدلة التي سوف تؤدي إلى معرفة هوية عريس الآنسة ماري سذرلاند المفقود.

شغلتني قضية طبية شديدة الخطورة في ذلك الوقت وقضيت طَوال نهار اليوم التالي وأنا منهمك في العمل بجوار سرير أحد المرضى، وكانت الساعة تقترب من السادسة حين فرغت أخيراً من عملي وصرت قادراً على القفز فى عربة صغيرة والانطلاق إلى شارع بيكر وأنا أشعر بخوف من أن أكون قد تأخرت عن المساعدة في الفصل الأخير من اللغز الصغير.

وجدت شيرلوك هولمز وحده وهو يغالب النوم وجسده النحيل الطويل يتكوّم على كرسيه المريح، وعرفت من العدد الكبير من الزجاجات وأنابيب الاختبار ومن الرائحة اللاذعة لحمض الهيدروكلوريك أنه قد أمضى اليوم بأكمله في الأعمال الكيماوية التي يحبها.

سألته عندما دخلت: حسناً، هل توصلت إلى نتيجة؟

- نعم، لقد كان ثاني كبريتات الباريوم.

فصِحت قائلاً: لا، بل أعني اللغز.

- آه، هذا؟ لقد ظننت أنك تقصد الملح الذي كنت أعمل به، فلا يوجد أي لغز في القضية رغم أن

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

بعض التفصيلات مثير للاهتمام كما قلت لك أمس، وإن كنت أخشى أن المشكلة الوحيدة هي أن ما فعله النذل لا يقع تحت طائلة القانون.

- مَن كان إذن؟ وما غرضه من هجْر الآنسة سذرلاند؟

ما كاد سؤالي يخرج من فمي وقبل أن يفتح هولمز شفتيه ليجيب حتى سمعنا صوت خطوات ثقيلة في الممر ثم طرقاً على الباب. وقال هولمز: هذا هو زوج أم الفتاة، السيد ويندیبانك، فقد كتب إليّ ليخبرني أنه سوف يكون هنا في السادسة.

ثم هتف قائلاً: ادخل.

فدخل إلى الغرفة رجل قوي البنية متوسط الطول يبلغ من العمر نحو ثلاثين عاماً، وكان حليق الوجه شاحب البشرة ذا أسلوب لبق دمث، وله زوج من العيون الرمادية الثاقبة الحادة. ألقى على كل منا بنظرة متسائلة، ثم وضع قبعته اللامعة على الطاولة الجانبية، وبعد انحناءة بسيطة جلس بخفة على أقرب كرسي.

قال هولمز: مساء الخير يا سيد ويندیبانك، أظن أن هذا الخطاب المطبوع على الآلة الكاتبة هو منك،

وفيه تحدد موعداً معي في الساعة السادسة؟

- نعم يا سيدي. أخشى أنني تأخرت قليلاً، ولكنني مقيد بدوام الوظيفة كما تعرف. وأنا آسف لأن الآنسة سذرلاند قد أزعجتك بهذه القضية البسيطة، ففي رأيي أن مثل هذه الأمور الخاصة الدقيقة لا يجب أن تُنشَر على عامة الناس. وقد عارضت قدومها بشدة إلا أنها فتاة انفعالية جداً ومتهورة (وربما تمكنتما من ملاحظة ذلك)، فليس من السهل السيطرة عليها عندما تصمم على أمر ما، وإن كنت لم أعارض قدومها إليك بشدة لأنك لا تعمل مع الشرطة الرسمية، ولكن إحداث ضجة بخصوص مثل هذه المشكلة العائلية ليس بالشيء السارّ، بالإضافة إلى أنها مصروفات إضافية بلا طائل، فكيف ستتمكن من العثور على هذا المدعو هوسمر إينجل؟

فقال هولمز بهدوء: على العكس، فأنا أملك من الأسباب القوية ما يدفعني إلى الظن بأنني سوف أنجح في اكتشاف السيد هوسمر إينجل.

جفل السيد ويندیبانك بعنف وأسقط قفازيه ثم قال: يسعدني سماع ذلك.

فقال هولمز: من الملفت للنظر أن الآلة الكاتبة

تملك في الحقيقة ما لخط اليد من خصائص التفرّد، فلا يمكن أن تتشابه كتابة آلتين للكتابة ما لم تكونا جديدتين تماماً. إن بعض الحروف يبلى أكثر من الأخرى، وبعضها يبلى فقط من أحد الجوانب. والآن ستلاحظ في رسالتك هذه -يا سيد ويندي‌بانك- أن فيها لطخة مطبعية صغيرة فوق كل حرف من حروف السين، كما أن فيها نقصاً في ذيل حرف الراء... بالإضافة إلى أربع عشرة علامة مميزة أخرى، إلا أن هذه هي الأكثر وضوحاً.

فأجاب زائرنا وهو ينظر بحدّة بعينيه اللامعتين الصغيرتين إلى هولمز: إننا نستخدم هذه الآلة في كتابة كل مراسلاتنا بالمكتب، ولذلك فلا بد أن تكون حروفها بالية قليلاً.

أكمل هولمز قائلاً: والآن سأوضّح لك -يا سيد ويندي‌بانك- ما يمثل حقاً دراسة شيّقة، فأنا أفكر في كتابة بحث في يوم ما عن الآلة الكاتبة وعلاقتها بالجريمة، وهو الموضوع الذي كرّست له بعض اهتمامي. أمامي هنا أربعة خطابات من المفترَض أن الرجل المفقود قد أرسلها إلى ابنة زوجتك، وقد طُبِعت كلها بالآلة الكاتبة، وسوف لن تقتصر ملاحظتك على أن كل حروف السين تعلوها لطخة

مطبعية وكل حروف الراء ينقصها الذيل، بل إنك سوف تلاحظ أيضاً -إذا استخدمت عدستي المكبِّرة- أن العلامات الأربع عشرة المميِّزة الأخرى التي سبق أن أشرتُ إليها موجودة أيضاً.

هبّ السيد ويندِيبانك من مقعده والتقط قبعته وقال: لا يمكن أن أضيع وقتي في سماع مثل هذا الكلام الخيالي يا سيد هولمز. لو كنت تستطيع الإمساك بالرجل فلتمسك به، وأخبرني حين تفعل.

فقال هولمز: بالتأكيد.

ثم مشى إلى الباب وأدار المفتاح في القفل بهدوء وأكمل: أخبرك الآن إذن أنني قد أمسكت به.

فشحب وجه السيد ويندِيبانك تماماً وأخذ يتلفّت حوله كالفأر في المصيدة، ثم صاح قائلاً: ماذا؟! أين...؟

فقال هولمز برقّة: لن ينفع هذا. لن ينفع بالتأكيد؛ فلا توجد طريقة تتملص بها من المسألة يا سيد ويندِيبانك. الأمر في غاية الوضوح، ولم يكن من اللطيف أبداً أن تقول إن من المستحيل أن أحل قضية بهذه البساطة. هذا صحيح، اجلس ودعنا نناقش الأمر.

انهار زائرنا على الكرسي وقد شحب وجهه ولمعت قطرات العرق على جبينه وغمغم قائلاً: لا يوجب هذا الأمر إقامة دعوى قضائية.

- أخشى أن يكون هذا صحيحاً، ولكن فيما بيننا يا ويندیبانك كانت هذه الحيلة التي نُفِّذت بدناءة

رسم سدني باجيت ١٨٩١

Sydney Paget 1891

من أكثر الحيل التي رأيتها جُبناً وقسوة وأنانية. والآن سأعيد عليك باختصار ما جرى، وعليك أن تعارضني إن أخطأت.

تكوّر الرجل في كرسيه وسقط رأسه على صدره كشخص مقهور، ومدّ هولمز قدميه على حافة المدفأة ومال إلى الخلف واضعاً يديه في جيوبه، ثم بدأ يتكلم وكأنه يحدّث نفسه في الواقع.

قال: يتزوج الرجل امرأة أكبر منه سناً بكثير من أجل مالها، كما أنه يتمتع باستخدام أموال ابنتها أيضاً طالما كانت تعيش معهما. كان المبلغ كبيراً بالنسبة لزوجين في وضعهما وخسارته كانت ستؤثر فيهما بشدة، ولهذا كان الأمر يستحق بذل الجهد للمحافظة على المال. لم تكن الابنة ذات طباع حسنة ولطيفة فقط بل كانت رقيقة القلب أيضاً، لهذا كان من الواضح أنها لن تبقى بلا زواج طويلاً لما لها من صفات شخصية جميلة ودخل مالي مناسب، وزواجها كان يعني -بالطبع- خسارة مئة جنيه في العام، فماذا يفعل زوج أمها لمنع زواجها؟ إنه يتبع الطريقة الواضحة فيحرمها من الخروج ومن الاختلاط بمن في مثل سنها، ولكنه يكتشف أن هذا الأمر لن يفي بالغرض لوقت طويل، فقد بدأت تتململ وتطالب بحقوقها، وأخيراً أعلنت

نيتها المؤكدة في الذهاب إلى حفلة بعينها، فماذا يفعل الرجل الماكر عندها؟ إنه يفكر في خطة توضح ذكاءه وقسوته، وتتستر عليه زوجته وتساعده في التخفي، فيُخفي عينيه الثاقبتين خلف نظارة ملونة ويداري وجهه بشارب ولحية كثيفة ويُخفض هذا الصوت القوي ليصبح همساً غير واضح، أضف إلى ذلك كله قِصر نظر الفتاة الذي يمنحه اطمئناناً مضاعفاً، فيظهر في صورة السيد هوسمر إينجل ويلعب دور المحبّ ليمنع اقتراب أيّ محبين آخرين.

أنّ زائرنا أنيناً مكتوماً وقال: لقد كانت مزحة في البداية، فلم نظن قط أن العاطفة ستجرفها بهذا الشكل.

- ربما كان هذا صحيحاً، ولكن أيّاً كان الموضوع فقد تحمست الفتاة للأمر بلا تردد، ولأنها كانت مقتنعة بأن زوج أمها كان في فرنسا فلم تخطر فكرة الخيانة ببالها ولو للحظة، بل شعرت بالزهو بسبب اهتمام السيد المحترم بها، وزاد إعجاب أمها الصريح به من هذا التأثير، في حين بدأ السيد إينجل بزيارتها لأنه كان من الواضح أنه يجب المضيّ في الأمر إلى أقصى مدى حتى يتم تحقيق الهدف المنشود. فجرت مقابلات، ثم تمت الخطبة التي كانت ستضمن

عدم اتجاه مشاعر الفتاة نحو رجل آخر. ولكن لم يكن من الممكن الاستمرار في الخداع إلى الأبد، فادّعاء السفر إلى فرنسا كان متعباً إلى حد ما، ولذا كان من الضروري وضع حدّ للأمر بشكل درامي مؤثّر يترك أثراً دائماً في عقل الفتاة ويمنعها من النظر إلى أي طالب آخر للزواج لبعض الوقت. وهذا الأمر اقتضى أن تقسِم بالوفاء واقتضى -أيضاً- إيهامها باحتمال وقوع شيء في صباح نفس يوم الزفاف، فقد أراد جيمس ويندیبانك أن ترتبط الآنسة سذرلاند بهوسمر إينجل ثم تبقى جاهلة بما حدث له حتى لا تفكّر برجل آخر مهما كانت الظروف... ربما لعشر سنين. فأخذها حتى باب الكنيسة لكنه لم يستطع الذهاب إلى أبعد من ذلك، فاختفى بشكل يتناسب مع الموقف، واستخدم حيلة قديمة فدخل إلى العربة ذات العجلات الأربع من باب ثم خرج من الباب الآخر! أظن أن هذه هي سلسلة الأحداث يا سيد ويندیبانك.

استعاد زائرنا بعض ثقته بنفسه بينما كان هولمز يتحدث، فنهض من كرسيه وارتسمت سخرية باردة على ملامح وجهه الشاحب، ثم قال: قد يكون ما قلته صحيحاً وقد يكون غير صحيح يا سيد هولمز، ولكن إن كنت تتمتع بمثل هذا العقل الحادّ فلا بد أنك تتمتع

بالذكاء الكافي لتعرف أنك أنت من يخرق القانون الآن ولست أنا، فأنا لم أفعل ما يوجب العقاب منذ البداية، ولكن ما دمت تغلق هذا الباب بالقفل فأنت تعرّض نفسك لدعوى اعتداء وحبس غير قانوني.

فقال هولمز وهو يفتح الباب على مصراعيه: كما تقول، لا يمكن للقانون أن يمسّك، ولكنك تستحق العقاب أكثر من أي شخص آخر، فلو كان للسيدة الصغيرة أخ أو صديق لوجب عليه أن يضربك على ظهرك بالسوط.

وبدا على وجه هولمز الانفعال واحمرّت وجنتاه حين رأى نظرة السخرية المريرة على وجه ويندیبانك، فأكمل قائلاً: ليس هذا من واجباتي تجاه عميلتي، ولكن ها هو سوط الصيد في متناول اليد وأظن أنني سأكافئ نفسي بـ...

ثم خطا خطوتين سريعتين باتجاه السوط، ولكن قبل أن يتمكن من الإمساك به سمعنا ضجيج خطوات على الدرَج ثم صوت إغلاق باب القاعة السفلي بقوة، واستطعنا رؤية السيد ويندیبانك من النافذة وهو يجري بأقصى سرعته في الشارع.

فقال هولمز وهو يضحك بعد أن ألقى بنفسه على

كرسيه مرة أخرى: يا له من نذل عديم الشفقة! سينتقل هذا الشخص من جريمة إلى أخرى حتى يرتكب جرماً خطيراً فينتهي الأمر به في السجن. ولكن القضية لم تَخْلُ في بعض نقاطها من الأمور المثيرة للاهتمام.

رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

قلت أخيراً: لكنني لا أستطيع حتى الآن رؤية كل خطوات تحليلك المنطقي.

فقال: لقد بدا واضحاً -منذ البداية بالطبع- أن السيد هوسمر لا بدّ أن يملك دافعاً قوياً لتصرفه المثير للفضول، كما كان واضحاً بالدرجة نفسها أن الرجل الوحيد الذي استفاد من الواقعة حقاً على حد علمنا هو زوج الأم، بالإضافة إلى حقيقة أن الرجلين لم يظهرا معاً قط، بل إن أحدهما كان يظهر حينما يختفي الآخر فقط. ثم تذكّر تلك النظارة الملوَّنة والصوت الغريب اللذين كانا من الأدلة الواضحة على التنكّر، بالإضافة إلى اللحية الكثيفة.

سكت هولمز قليلاً ثم أضاف قائلاً: وقد تأكدت شكوكي كلها بسبب تصرفه الغريب بطباعة توقيعه، مما يدل بالطبع على أن خط يده كان مألوفاً جداً للفتاة بحيث يمكن أن تلاحظه حتى لو لم يكتب بخطه إلا نموذجاً صغيراً كالتوقيع... وكما ترى فكل هذه الوقائع المنفصلة تشير -حين تنظر إليها مجتمعة- بالإضافة إلى عدة وقائع بسيطة أخرى إلى نفس الاتجاه.

- وكيف تحققت من صحة هذه الوقائع؟

– ما إن حددت الرجل المطلوب حتى أصبح من السهل تأكيد إدانته، وبما أنني أعرف الشركة التي يعمل الرجل فيها فقد أخذت الوصف المطبوع وحذفت منه كل ما يمكن أن يكون متنكّراً به، اللحية والنظارة والصوت، ثم أرسلته إلى الشركة وطلبت منهم إخطاري إذا كانت تلك المواصفات تنطبق على أيٍّ من مندوبي المبيعات الذين يعملون لديهم.

وكنت قد لاحظت الخصائص المميزة للآلة الكاتبة فكتبت للرجل رسالة وأرسلتها إلى عنوان عمله أطلب منه أن يتكرم بالحضور إلينا هنا، وكما توقعت. كان ردّه مطبوعاً بالآلة الكاتبة وقد ظهرت فيه نفس العيوب المميزة رغم بساطتها. وقد استلمت مع البريد أيضاً رسالة من شركة ويستهاوس وماربانك يقولون فيها إن الصفات تنطبق تماماً على موظف عندهم اسمه جيمس ويندي بانك. هذا كل ما حدث.

– وماذا عن الآنسة سذرلاند؟

– لو أنني أخبرتها بالحقيقة فلن تصدّقني. سوف أذكّرك فقط بالمثَل الفارسي المأثور الذي يقول: «إنّ من يحاول أن يسلب المرأة وهماً تعيشه يعرّض نفسه إلى مثل الخطر الذي يتعرض له مَن يحاول خطف

شبل النمر»... وفي هذه الحكمة نهاية هذه القضية الصغيرة.

* * *

-تمت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا
(٢) قضية هوية
(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
(٤) لغز وادي بوسكومب
(٥) بذور البرتقال الخمس
(٦) ذو الشّفة الملتوية
(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء
(٨) لغز العصابة الرقطاء
(٩) مغامرة إبهام المهندس
(١٠) مغامرة النبيل الأعزب
(١١) مغامرة تاج الزمرّد
(١٢) منزل الأشجار النحاسية

ذكريات شيرلوك هولمز

(١) ذو الغُرّة الفضية
(٢) لغز الطرد البريدي
(٣) لغز الوجه الأصفر
(٤) مغامرة موظف البورصة
(٥) سفينة «غلوريا سكوت»
(٦) وصية عائلة موسغريف
(٧) لغز بلدة ريغيت
(٨) مغامرة الرجل الأحدب
(٩) لغز المريض المقيم
(١٠) مغامرة المترجم اليوناني
(١١) وثائق المعاهدة البحرية
(١٢) المشكلة الأخيرة